هارون محمد يبحث عن هارون الرشيد

رباح آل جعفر

لم أكن أعرف بغداد، ولم يكن معي دليل، ولا حادي، ولا شوق، ولا ترجمان، وفجأة، وجدتني طالباً أدرس الصحافة في قسم الإعلام بجامعة بغداد، ولم يكن كلية آنئذ، وأبحث لنفسي عن مكان في الدنيا الجديدة، وأحاول أن أجد لقدمي موضعاً في الزحام، وكنت أبدو، في ذلك الوقت، أشبه بفتى قادم من أقصى الريف، يهبط إلى مدينة غريبة، ومدهشة.. لم يكتشف عالمها، ولا أخلاقها بعد.

وراودتني أحلام واسعة في الجلالة، وبلاطها، وتيجانها، وأنا أجد نفسي في جو الصحافة الأكاديمية لأول مرة، أتتلمذ بين يدي أستاذ كبير، الدكتور سنان سعيد، الذي أشعر نحوه بعرفان بالجميل عميق، وقد أقبل كلانا على الآخر من أول لحظة التقينا، وكنا نشعر بالودّ وبالألفة من دون أن ندري، وتفاهمنا بأعذب من هتاف نجمة لنجمة، وأشهد أني استنشقت في أدبه طيباً غير مألوف، ولا معروف، وهو يلمس أوراقي لمساً حنوناً يشبه طيران الفراش الليلي، ويفتح أمامي بحسّه المرهف، درباً شقها بمحراثٍ منحوتٍ من أضلعه، وأنا لا أزال أحبو في عالم الصحافة، لكن قدره لم يمهله حتى يتمتع بحياة أطول، فأصيب بجلطة دماغية وأصبح (جثة) ممددة على الفراش، وتحطم ذلك القلب، وأخذه الموت غيلة بعد صراع مع المرض شاق، وأكاد أحياناً أحس بروحه تخفق من حولي.

في صحيفة (العراق)، وكنت ما أزال طالباً أدرس الصحافة في المرحلة الأولى، وجدت لي بيتاً وقد ضاقت عليّ البيوت، وضاقت القلوب التي في الصدور، وكان الفضل لصاحب الفضل، الصحفي القدير الصديق والزميل الكريم صباح جليل اللامي الذي نشرت من خلاله أول عمود لي في الصفحة الأخيرة من هذه الصحيفة، وكان النشر يومئذ أشبه بمعجزة، وصباح اللامي صاحب أسلوب حلو المذاق، نشيط في أنغامه، رقيق في إيقاعه، وشاعر تهيم روحه حيث يكون الجمال.

يقودني هذا المدخل، وقد آثرت أن أكتب هذه المرة عن زميل قديم، وصديق عزيز، وصحفي وكاتب وسياسي بارز، هارون محمد، وهو بعيد، بعيد، هناك، ولكن أين.. وكل الأوطان منافي؟، كلمات مشبوبة بالعاطفة، وذكريات عزيزة على نفسي، تخفق مع أيام خوال، ولعلها تدق قرب قلبي، وقلبه، عشناها معا في بلاط صاحبة الجلالة ، وفي حضرة (العراق) الصحيفة، وقد عرفته أول مرة في الثمانينيات، وكله أمل في الحياة، وكان اندفاعه تلقائياً ملفتاً للنظر، فقد بدا وكأنه متسابق يقفز الحواجز كلها في خط واحد متصل.. ثم تألمت لهذه الآمال التي انهارت، والحواجز التي سقطت واحداً تلو واحد.

ذكريات أعادتني إلى عملنا المشترك في مجلة (القمة) التي كان يصدرها الأستاذ هارون بامتياز شخصي من قبرص، وإلى أيام مضت كنا نلتقي عند صديقنا المشترك المفكر الراحل عزيز السيد جاسم، وفي بعض الأحيان يكون معنا الشاعر الكبير الراحل عبد الوهاب البياتي، وعشرات من ألمع الأسماء في السياسة والصحافة والثقافة، وكان مكتب عزيز السيد جاسم في شارع السعدون في قلب بغداد أشبه بسوق الثلاثاء، يلتقي به مثقفون وأدباء، من كل لون وصنف واتجاه، وشباب يتفجرون بالحماس والنشاط، وفي أدمغتهم تدور أفكار جديدة، ولديهم طموح من نوع خاص.. وعشنا زمناً بالطول وبالعرض، وبالعمق أحياناً، ولم تكن أحلامنا وهماً، أو هلوسة، وكانت تطلعاتنا محدودة، ومطالبنا سهلة، فقط أن نرى الناس يعيشون بسلام، وضحكنا ساعات من حناجرنا، وفي ساعات رأينا جهنّم الحمراء في عيوننا.. وعرفنا الشوق واللهفة، وكذلك عرفنا الألم والفراق، وكنّا نحسب الأيام مثل حساب العصافير لحبّات البيادر.. وأحياناً كنا نشعر أن الدنيا أصبحت في عيوننا مثل ثقب الإبرة، ومع ذلك كنا نريد، أن ننفذ من هذا الثقب إلى العالم الآخر!.

وكان هارون دائماً في حيّز الأشواق، يسكن ما يمكن تسميته بالوجدان ، وهو من قلة بين كثرة أثلجت صدري صحبتهم، وكنا اثنين لا يفترقان، حافظين لصلات وعهود تسبق في حسابنا أي حساب، وصداقة حرصنا منذ البداية، أن نحميها مثلما يجب أن تُحمى، وألاّ نتأثر بما تحشو الببغاوات أفواهها، ونصمّ آذاننا عن كل ذلك اللغو، وكانت صداقتنا بريئة، من دون مجاملات، أو تزويق، مما تصنعه المساحيق، حتى يصحّ في وصفنا قول البحتري:

لقد صدق البشيرُ بما ابتهجنا
له.. لو كان يصدقنا البشيرُ

وهارون كان، وما يزال ، صديقي وزميلي، إلى درجة اختلطت فينا الزمالة بالصداقة، فأنا لا أعرف بالضبط ، هل زمالتنا كانت مقدمة الصداقة، أم صداقتنا كانت مقدمة الزمالة، ومرّت فترة في علاقتنا توحّدت فيها مقاصدنا، وشاركته بقلبي أفراحه وأحزانه، وشاركني بقلبه هو الآخر، فصار بيننا إرث من محبة، وعرفنا نوعاً من البشر، ليسوا إلا نوعاً من النحل، أتيحت له فرصة أن يلسع، وكانت كلماتنا كأنها حركة مجداف، يضرب وجه الماء في هدوء ودعة وانسياب، وذات جذور عميقة ومتبادلة، تجربة مشتركة من العمل والودّ والحلو والمرّ، عشناها معاً، يوماً بيوم، وساعة بساعة.

وأريد أن أقول، وبمحبة خالصة مع الزمان وناسه، إن صحبتي مع هارون محمد، كانت مثل بواخر، تقابلت بالليل في عرض المحيط، واقتربت حتى كادت تتلامس ظلالها، وبقيت ثابتة، أمام تدافع الموج، لم تدع التيار يجرفها إلى الهاوية، ثمّ مضت كلّ باخرة نحو مقصدها إلى بعيد، وأصبحت بيننا موانئ، ومرافئ متباعدة، بينها مسافات شاسعة، في دنيا غير الدنيا، وأيام اختلفت عن أيام، برغم أني كنت ، ولم أزل، أؤمن، أن هارون محمد من إخوان أحقّ ببقاء المودّة، وكان المتنبي العظيم هو القائل:

خليلك أنت لا من قلت خلّي
وإن كثر التجمّل والكلامُ

ولعلّ علة هارون محمد إن ذاكرته قوية، والذاكرة بصورة عامة خطر على السياسة، لأنها سهم متجه إلى الوراء، لا سهم ذاهب إلى المستقبل.. وهو كاتب انقلابي، استطاع أن يخرج من المألوف السياسي إلى اللا مألوف، ويحلم بجمهورية عراقية لا تشبه جمهورية أفلاطون، ولا بقية الجمهوريات.. وكذلك فانه يؤمن إن دور الكاتب المغني قد انتهى .. وهذا الوطن لم يعد يبحث عن كاتب يحرك فيه غريزة الطرب، ويهز له سريره حتى ينام، لكنه يبحث عن كاتب يورّقه، ويثير أعصابه، ويغرز في جلده دبوسا من نار.. ويقص أرجل السرير الذي ينام عليه منذ خمس مئة سنة.. فربما إذا اصطدمت رؤوس النائمين بالأرض.. عرفوا قيمة الأرض.

لا ضاعت ذاكرته العربية، ولا تبرّأ من تراثه القومي، ولا تخلّى عن مواقفه.. ومن حقنا أن نعتب على الأستاذ هارون، لأنه لم يكشف عن خزانة من وثائق التأريخ العراقي، وعن مفارقات الصحافة العراقية وتناقضاتها في خمسة عقود عاصرها والتحم في تياراتها، كما أنه لم يكتب، إلى الآن، مذكراته الصحفية عن حركة القوميين العرب، والحركة الاشتراكية العربية، وعن تفاصيل عمله مع الراحل فؤاد الركابي، وتجربة اعتقاله في قصر النهاية.. ومن حقه أن يصدر أحكامه على الناس وعلى الحوادث، حتى ولو كان الاعتماد على الذاكرة الشخصية، وأن يضع كل أمر في نصابه، وأن يظهر وجه الحقيقة، وما حساب أولئك جميعاً، سيما وأن الأحياء من جيله منهم من شاخ وكبر، ومنهم من نسي، أو تناسى، وكان أجدى به أن يروي القصة كاملة، كشاهد عيان أتاحت له الظروف أن يعيش الوقائع، وهو مقتدر على روايتها بدقّة وتفصيل، كما لو كانت هذه الأحداث قد وقعت له منذ لحظات!.

وهارون من الذين يصدق فيهم المثل القائل: (حلب الدهر أشطره)، أي مرّت عليه صروفه من خير وشر، وتقلّبت به المقادير، كشراع في مرافئها، وسال له حبر كثير على الورق، وله ذاكرة لا ينعم بها إلاّ الكمبيوتر، وفي بعض الأحيان كنت أستنفر ذاكرته، حين يستعصي عليّ النسيان، وهو أدقّ من ذاك لفرط ما يضخ فيها من عواطفه، عكس آخرين ظلوا يستحلبون الذاكرة حد الاستنزاف، فتقرأ، وتسمع، لهارون، من أدق تفاصيل الذكريات، عن حقب في الصحافة لها معنى، ورجال في السياسة لهم أدوار، بما تستحق النشر، وتستحق أن يقبل الناس على قراءتها!.

ولقد أحببت رقته ووداعته ووفاءه النادر لأصدقائه، وفاء قلّ أن يكون له نظير، مثلما أحببت تلك الكلمة الضاحكة، واللفتة الذكية، والنكتة الحلوة، حين كانت تجمعنا المجالس إلى جانب صداقات عزيزة وغالية، وكان مستحيلا أن يستقيم وصلنا بغيره، وأن لا يكون هو ضمير المتكلم، فلكي تبني جسراً مع الناس، لا بدّ أن تكتشف لغة قادرة على التواصل، ووجدته حضوراً منشرحاً متهلّلاً، وراوية حكايات مشوّق ، وكانت النكتة سلاحاً من أسلحته، وميزته أنه يستطيع أن يخلق حدثاً معيناً من الأحداث بمزاج صاف، يشيع به على الحضور نوعاً من البهاء!.

صحبت الأستاذ هارون محمد ثلاثاً وعشرين سنة بالتمام، فوجدته الرائي الذي رأى كل شيء، واكتشفت أن أروع جوانب شخصيته وأحلاها، تلك اللغة الصافية الساخرة، التي تتدفق من لسانه عفو الخاطر بلا رقيب، ومن دون تحفّظ، وبلا أي تكلف، وهو يعرف، كيف يكون الصحفي ساخراً، ومحترماً، وكان، ولم يزل، يثير الأسئلة المشاكسة التي لا طاقة للفتيان بها.. وعدا عن ذلك كله، فهو مضياف، متلاف، لا وزن عنده لما سوف يحدث غداً، شديد الأنفة والكبرياء، يجوع ولا يسأل اللئيم.

وفي الصحافة العراقية عرفنا العشرات من الأدعياء، الذين لا يعرفون الفاعل من المفعول، ولم يكونوا من هواة القراءة، ولم يكن لديهم كتيب، وإنك لتعجب وتشعر بالغصّة، نحو عدد من الأسماء، والأصوات النشاز ، والظواهر الشاذة عن الطبيعة، التي تشبه البالونات الملوّنة، التي يطلقها الأطفال في مواسم الأعياد، ثمّ ما تلبث أن تنفجر بعد دقائق من إطلاقها، أو إنها مثل الفراشات، تتحوّل إلى بيض يفقس دوداً مرّة أخرى (مشكلتنا في الصحافة كانت وما تزال، هو هذا الدود)!!.

ولقد قيل في هارون محمد كلام كثير.. قليله تميز بالعدل والإنصاف، وأعطى ما لله لله، وما لقيصر لقيصر.. وكثيره تميز بالظلم والإجحاف، ولم يعط شيئا لا لله، ولا لقيصر.

وأعلم أن الذين يهاجمونه، هم أولئك العدميون، الذين تضايقهم اللغة العربية، لأنهم لا يستطيعون قراءتها، وتزعجهم العبارة العربية لأنهم لا يستطيعون تركيبها.. إنهم يريدون أن يفتحوا العالم، وهم عاجزون عن فتح كتاب، وهم يريدون أن يحرروا العراق، وهم عاجزون عن تحرير جملة مفيدة، ويريدون أن يخوضوا البحر، وهم يتزحلقون بقطرة ماء.. وهم يبحثون دائماً عن ضحية يفرغون فيها كل إسقاطاتهم، وعقدهم، وانحرافاتهم النفسية.

ومنذ نحو عشرين سنة وهارون محمد غريب في بلاد غريبة، يطوف في الآفاق القصية كلها يبحث عن أجوبة لأسئلة راحت تلحّ عليه، ويحلم بعودة بغداد هارون الرشيد، لا عجمة فيها، ولا عوج، ولا برامكة.. ويدافع عن كل نخلة في بغداد تتكلم بجملة عربية، وعن كل طير في بغداد ينطق بلسان عربي ويصبح طيراً أبابيل، وعن كل شبر في أرض بغداد يحفظ قصة بطولة عربية.. وهو يؤمن إن كل وليد فصاله في عامين، إلا بغداد ليس لها فصال عن الأرض العربية، وكل وليد له فطام عن أمه، إلا بغداد تأبى الفطام، لأنها شاهدة على أن المدن الباسلة لا تموت.. في عصر عربي يصحّ وصفه بعصر الشظايا المبعثرة ، والمثقفين المنفيين!.

كَـــاكَـــا

عبد الواحد الزفري

لم يكن لسكان مدينتي متنفسا سوى مقاهي الشاي التي تعد على رؤوس الأصابع، كانت مجموعة من الشيوخ تتسلى بلعب "الضاما" التي اشتهر بها متقاعدون عن الجندية، ألفوا حياة المعارك فلم يستطيعوا التخلص من ممارستها ولو على ميدان من الورق المقوى وعساكر من سدادات القنينات أو من قطع خشبية، مر من ساحة "المرس" فلن تسمع سوى صوت أحدهم:

- "نفخ هذي، جوج وضاما"...

أو ترى آخر يعتدل في جلسته فارزا صدره كأنه طاووس:

- "سير فالواد أو لدي واطلع الضيم".

لم أفهم آن ذاك سبب وضع مجموعة منهم أوراقا على حافة آذانهم أو تحت طاقيتهم حتى أخبرني أحد الأصدقاء، أنها إعلان عن هزيمة في معركة دارت رحاها على تلك الرقعة العجيبة.

مجموعة أخرى تجمعت في أركان المقاهي رباعا رباعا لتلعب الورق تتوسطهم حبات حصى.

- "روندا.. طرنكا.. ميسا.. إستي" مصطلحات غريبة لا وجود لها في قاموس اللغة العربية، إلا أنها أصبحت لغة ذات مرجعية للعبهم الذي لا ينتهي إلا بسماع "حبل وبنت" إعلانا عن فوز فريق على آخر.

أما نحن الصغار لم يكن لنا مكان بينهم فكنا مولعين بالذهاب إلى ساحة "المرينة" لحضور "الحلقات" التي تنظم كل مساء: "قاص ضابو" و"ولد حليمة العويرة" يحكيان الأزليات والعنتريات وقصص "ألف ليلة وليلة"، "بامو" يأمر قرده "سعدان" بتقليد شخصيات من المجتمع أو أعمالهم (نوم الكسول - عجين الفلاحة...) و"باحمو" يبهر بعروض كلبه الذكي "تشيكو" جميع الحاضرين.

أذكر جيدا أنه لم يجرؤ أحد على الجلوس على تلك الحجرة الكبيرة التي تحتل موقعا بارزا على محيط حلقة "قاص ضابو" والمخصصة لـ "خاي أحمد" أقوى رجل في المدينة.

أما "كاكا" فاستطاع بخبرة (قل نظيرها في الركوب الدراجات) أن يحتل مكانة مرموقة داخل "حلقات" المرينة، يقوم بألعاب بهلوانية تبهر الكبار قبل الصغار"، يدور داخل محيط الحلقة على دراجته دون الإمساك بمقودها ويرفع أحد عجلاتها في السماء، يسوقها في الاتجاه المعاكس دون النظر إلى الخلف، بمهارته العالية يجعلها تدور لوحدها ويأمرها بالعودة إليه وهو يصيح:

"ويكا" "ويكا" تعالي إلى هنا.

فتعود إليه خانعة طائعة، كأنها حيوان أليف. ما أروعه وهو يتصدر سباقا للدراجات رافعا يديه إلى السماء عند نقطة الوصول كما لو كان طارق بن زياد وقد دخل بلاد الأندلس. كان سعيدا بحياته، يختال في مشيته أثناء تجواله في شارع "مولاي علي بوغالب" هذا يوجه له تحية إكبار وآخر يعانقه كما لو سجل هدفا رائعا، كان نجما ساطعا يضاهي نجوم "هوليود" شهرة. طويل القامة، أنيق الملبس، حليق الدقن باستمرار ويضع ذهن "البرنتين" الإسباني على شعره الناعم المسرح إلى الخف.

غير أن دوام الحال من المحال، غزا العمران ساحتا "المرينة" و"السويقة" وأعدم "الحلقة" وألقى بملوكها "قاص ضابو" "و"ولد حليمة العويرة" "بامو" وغيرهم في خزان المنسيات.

بقي "كاكا" يجول شوارع المدينة على متن دراجته التي لم تعد نشيطة كعهدنا بها تآكلت عجلتيها وأصاب الصدأ إطارها المعدني، حزنا على ماض ولى وجمهور غادر مسرحها. وجدته ذات يوم يخاطب معشوقته "ويكا":

- لم أعد قادرا على إعالتك أيتها الغالية، لا شيء فيك لا ينقصه شيء.

تركها مسندة على الجدار الخلفي لسينما "بيريس كالدوس" الذي التهم جماهيرا كانت بالأمس لا تبارح حلقتها، وانصرف إلى حجرته التي اكتراها في أبخس فندق بحي "الديوان" لكنه ما كاد أن يصل إلى بوابته العتيقة، حتى وجدها ترن له على عتبته وتحرك عجلتها الخلفية فرحا لرؤيته ، ولأنها سبقته إلى مرقدها المعهود، انفجر "كاكا" ضاحكا:

- يا لك من مخلصة، أتقبلين بي في الحلو والمر؟!

كل صباح كان يجلس على حافة إحدى أرصفة حي "السويقة"، يرثي أطلال حلقته وقد تحولت إلى حديقة ليقول في صمت:

- جميل أن تتحول ساحة لكم زرعت الفرحة في النفوس إلى حديقة ، وكأنني كنت بالأمس أزرع بها ورودا وأشجارا...

استقر الحال ببطلنا على مقعد في مقهى يقابل مكتب "العدول" كأنه ينوي طلاقا ما، أفل نجمه ووضعه الزمان في أرشيف المنسيات، إلى أن جاءه عون السلطة:

- بلدية المدينة تحتاج إلى خدماتك.

اعتدل "كاكا" واقفا كالفينيق الذي ينبعث من رماده، ورفع أنفه إلى السماء علامة على الرفض، لكن الجوع كان أقوى منه و من كرامته ، وقادرا على مسح الأرض بأعشى الأنوف.

في صباح الغد استحم، حلق ذقنه بنصف شفرة كان يدخرها لمناسبة لم يكن ينتظرها حتى تصدأت، ثم مشط شعره إلى الخلف بعد أن ذهنه بما تبقى من زيت في قاع قنينة لم تعد تقبل أية سدادة ، وارتدى قميصا باهتا و سرواله الوحيد الذي لم يعد يتقبل أية رقعة.

لما دخل بهو بلدية المدينة لم يثر فضول أحد، تقدم نحو موظف غارق في سجلات طال طولها وعرضها.

- صباح الخير سيدي.

فجاء صوت الموظف من أعماق بحار من الأرقام والحروف:

- أهناك خير أكثر من هذا؟ (مشيرا إلى تلك السجلات) ضع طلبك في مكتب الضبط.

هم صاحبنا بالانصراف ، لكنه التفت نحو الموظف وكأنه تذكر شيئا.

- أنا "كاكا" لقد طلب مني الحضور.

انتصب الموظف واقفا وكأنه ضبط من طرف رئيسه في عملية رشوة فاحت رائحتها.

- معذرة تفضل أهلا وسهلا، بفضلك يا أخي سأستطيع الذهاب إلى بيتي في أي وقت متأخر من الليل. لم يفهم هذا الزائر الغريب فك شفرة كلام الموظف.

بعد طول انتظار استقبله المسؤول:

- لم ننساك يا "كاكا" لقد وجدنا لك شغلا مؤقتا.

فرد عليه باعتزاز:

- شكرا على هذه الالتفاتة إلى من دفن في كهوف النسيان.

ابتسم في محاولة لإضفاء جو من المرح وإذابة تلك الصخرة الثلجية التي كانت تجلس على كرسي دوار.

- كما أشكركم بالنيابة عن دراجتي "ويكا".

أجابه المسؤول بعد أن أشعل سيجارة فخمة وابتسم ساخرا:

- دعك من الحلقة ومن "ويكا"، وابحث عن أريكة لتريح وتستريح.

لكن "كاكا" لم يفهم المقصود لأن مؤخرته ما تذوقت قط نعومة الأرائك.

وبكل وقاحة طلب منه المسؤول قنص الكلاب الضالة أثناء خلو الشوارع والأحياء من أهلها، سيما حول منزله الفخم، على اعتبار أن "كاكا" خبير بأماكنها ما دام قد تسكع لليال طوال بعد عجزه المستمر عن توفير أجرة حجرته بفندق خمسة نجوم تحت الصفر وهمس قائلا:

الدنيا إذا أقلبت باض الحمام على الوتد
وإذا ما أدبرت بال الحمار على الأسد

لم يكترث المسؤول لوقع حديثه على كرامة "كاكا" وطلب منه تسلم عهدة الصيد من المخزن الموجود بأسفل "البلدية".

أفرغ "كاكا" حقده وقتل جحود الناس في مئات الكلاب، وظل مصرا على إيقاظهم من عمق سباتهم وهو يطلق الرصاصة تلو الأخرى، إلى أن واجه ذات يوم كلبا عجز عن الإيقاع به، أدار الكلب رأسه نحو الحائط بعد أن أعيته لعبة المطاردة وآلام الحجارة التي لم تكن لتخطأ جسده النحيف، ليستسلم لحكم الإعدام الصادر من قبل البلدية في حق الكلاب الضالة، لم يتردد "كاكا" في إطلاق رصاصة لم تخطئ قلب الكلب، اقترب منه و برجله أدار جثته ليتعرف على هذا الماكر الذي قد يكون من فصيلة الذئاب، فجاءت المفاجأة كالصاعقة، إنه "تشيكو" نجم حلقة "باحمو" الذي غادره قصرا إلى دار البقاء تاركا "تشيكو" يتسكع وحيدا في مزابل الكلاب الضالة.

كانت تلك هي الصدمة التي جعلت "كاكا" يغادر أسوار مدينة غادرة، فعشق طيور "الوادي الجديد" البعيد عن العمران : لأن لها أجنحة كالتي كانت له بالأمس يحلق بها في مملكته "الحلقة الواسعة"، كأمير خرج للتجوال أمام رعيته المطيعة، فأصبح خبيرا بأنواع الطيور المهاجرة، يعرف بالضبط وقت رحيلها، وينتظرها على ضفاف النهر الرقراق باكرا يوم عودتها، كأم حنون جاءت تستقبل أبناءها بعد طول غياب في بلاد المهجر، ألفها وألفته حتى أصبح "تشومسكي" في لسنياتها ، عن طريق صفيره الكرواني يتواصل معها وتتواصل معه، يفهمها وتفهمه.

غارت عليه وعلى طيوره أمطار الشتاء الباردة، فطاردته حتى مشارف المدينة القديمة، ليتسكع من جديد في ثنايا دروبها العتيقة، يحضر للناس طلباتهم مقابل سيجارة رخيصة أو كأس خمر رديء.

رفقا بحاله لم تعد"ويكا" تطلب منه شيئا، بعد أن قررت صيام الدهر. بعد طول مدة من الذل والحرمان حملت حبيبها "كاكا" لتلفظ أنفاسها الأخيرة من أعلى قنطرة "الوادي الجديد"، لكنها فضلت أن تعطل شاحنة إسمنت كبيرة قادمة لخنق الفضاءات المتبقية في المدينة، فأحدثت فراملها صوتا احتجاجيا غريبا، وكأنها تقرأ وصيتها الأخيرة على مسامع حبيبها الغالي:

- لن أتركك وحدك، معا عشنا ومعا سنموت...